

مع الغزالي في المنقذ

الكاتب

د. إبراهيم هلال



مع الغزالى فى المنقذ

بقلم الدكتور ابراهيم ابراهيم هلال

قد يكون أنى كتبت فى هذا الموضوع من قبل تحت هذا العنوان ، أو ما يقرب من هذا العنوان ، ولكنى وجدت بعض الابصار التى قرأت فى ذلك لا تزال عليها غشاوة الجهل وعمى القلب ، والبعد عن طريق الايمان طريق الكتاب والسنة ، فكتبت تستفسر وتنكر باطنية الغزالى التى صرح بها فى مقدمة كتابه « الاحياء » فى افتتاحية كتاب العلم .

ولكى نؤكد لهم هذه الباطنية الذميمة ، والبعد عن سبيل المؤمنين ، والركون الى فلسفات الوثنيين من فرس ويونان وهنود ، غفلة منه عما فى كتاب الله وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانسياقا مع تجارب الفلاسفة والشاكين من قديسى النصارى المغيرين المبدلين من نصارى أوروبا فى القرون الوسطى كالقديس (أوغسطين) الذى شك فى وجود الله وألحد ، ولم يخرجه من هذا الشك كما يدعى الا دخوله فى طريق التصوف . لكى نؤكد لهم ذلك : فهذه هى حياة الغزالى التصوفية كما يحكيها فى المنقذ ، اذ أنه كما يقول الامام ابن تيمية لما كان رصيده من الكتاب والسنة ضئيلا ، وفقهه لهما أعجمى باطنى ، وتربيته الاولى صوفية غير دينية ، ولم يمكنه أن يفقه فيهما كما يفقه العربى المؤمن ، والذى أوتى قلبا سليما خاليا من كل شوب يشوب الفطرة التى فطر الله الناس عليها وهى الاسلام .

وهو قد صرح بنفسه كذلك ، فقال : أنا مزجى البضاعة فى الحديث. وطبيعى من انسان كذلك قد حجب منذ طفولته الاولى عن الكتاب والسنة، وربى على التصوف واشراق الوثنيين من الصابئة اليونان وغيرهم — فأسلمته هذه العلوم الى الشك ، ولم يستطع مقاومته لانه لم يحصن

نفسه ، ولم يملأ قلبه بهدى الله وايمان المؤمنين وطريق الكتاب والسنة والفقه فيهما ، ولم يفكر فى أن يعتصم بهما من الشك ويلوذ بهما من تلك الحالة التى انتابته ، بل اتجه الى كل فلسفة وكل علم عرفه فى زمنه أو سمع عنه • وأخيرا وجد منقذه فى التصوف كما يدعى ، وان كان فى الحقيقة والواقع لم يجد الا المخدر الذى غيبه عن وعيه وعن غيه وواقعه الاليم الذى صار اليه ودام عليه كما يقول عشر سنين • فلما لجأ الى التصوف ينقذه ، غاب فيه كما يغيب المريض بالمخدر عن آلامه التى هو فيهـا •

وهو يحكى لنا ذلك فى كتابه الذى أسماه « المنقذ من الضلال » وهو يقصد بذلك أن التصوف هو الذى أنقذه من الضلال • ولكن تعالوا بنا نسير معه فى حياته هذه التى يحكيها ويبحث فيها عن وسيلة للخروج من الشك الذى حاق به : أأنقذه التصوف ، أم تردى به الى الجرأة على الله، والغيبوبة فى الوهم والخيال والهستيريا والقيام فى أودية الشياطين ؟ !•

يقول : انه لمـا استولى عليه الشك ، راح يطلب اليقين أولا عند الفلاسفة فلم يجده عندهم ، ووجدهم الى الكفر أقرب ، فتركهم واتجـه الى علماء الكلام ، فضل به علم الكلام الى سفسطات وجدل لم يزده الا شكا ، فانتقل الى الباطنية ممن يسميهم التعليميين من غلاة الشيعة أو الشيعة الغلاة أصحاب الامام المعصوم فلم يجد عندهم الهداية ، ووجد أن الجرى وراء الامام المعصوم سيضنيه ولن يزيده الا شكا ، فأقبل على التصوف كما يقول ، وان هو فيه من قبل ، لاننا نجد أن تربيته الاولى تصوفية ، ومعلمه الاول الذى أوصاه والده به وأسلمه اليه يربيه بعد وفاته صوفى ، وكتاباته فى جميع مراحل حياته صوفية وكذلك قراءاته• فوجد فى التصوف بغيته كما يقول ، ووجد الصوفية كما يقول هم السالكون وأن علم العلماء ، وحكمة الحكماء ، لا تساوى الى جانب تصوفهم شيئا •

ثم يقدم لنا طريقتهم التى أوصلته الى الهداية أو عرفته بالله فيقول انها العزلة والخلوة ليالى وأياما ، وحرمان النفس من متع الحياة التى

أحلها الله ، وهجران الاهل والولد أو اهمالهم كلية ، ومواصلة الجـوع والسهر ، والاقتصار على أداء الفرائض دون النوافل ، والبعد عن قراءة القرآن الكريم والحديث الشريف ، والاقتصار على الاوراد المبتدعة المفتعلة ، ولا يزال الانسان على ذلك أولا زال هو هكذا حتى برقت له بارقات الحق ورأى أصوات الملائكة وسمع أرواح الانبياء ، بل رأى ما هو أبعد من ذلك وأعلى مما لا يمكن البوح به وكأنه يقصد بهذا وجه الله الكريم ، كما يشـير الى ذلك في البيت الذى أورده ــ بهذا الصـدد :

وكان ما كان مما لست أذكره　　　فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وكأن الايمان عند الغزالى لا يكون الا عن طريق رؤية الله جهرة على طريقة قوم موسى حيث قالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصـاعقة وهم ينظرون كما قال تعالى فيهم : (واذ قلتم يا موسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) ٥٥ سـورة البقـرة •

فليس بعد هذه الطريقة ــ طريقة الغزالى ــ الا هذا ، وهذا هو والمتصوفة جميعهم ، يدعون أنهم مؤمنون ، ولكنهم شاكون سلكوا طريق التصوف للوصول الى الايمان ، أو لرؤية الله جهرة ، ويسـمون ذلك المعرفة ، ويسمون من وصل الى هذه المرحلة من الهـوس أو الدجل (عارف) • فالعارف عندهم هو من رأى الله جهرة ــ وهو من كشـف له ما لا يكشف للانبياء ، ومن وصل الى ما منع منه موسى عليه الصـلاة والسلام حين طلبه تمشيا مع لجاجة قومه ، كما ادعى ذلك ابن الفارض وغيره •

وهكذا يصلون الى الضلال ويقولون انهم (عارفون) ، ويتبوأون مقاعد الوثنية ويقولون انهم (أولياء لله) •

وبهذا فليس هذا المنقذ الذى سماه الغزالى كذلك ، الا مضلا ومهلكا وملقيا فى أودية الكفر والخروج عن الدين • لان هذه الحالة التى اعترته والتى يقول فيها أنه وصل بها الى العرفان ، هى حالة هستيرية اعترت عقله ، وخبل استولى عليه ، فرأى ما يراه المجانين ، وجاءت الشياطين فى هذه الحالة واستهوته ، وأوهمته أن هذا هو الحق ، وأنه رأى الله وأنه بهذه الرؤية عرف أن هناك اله ، وبذلك آمن • ولكنه فى الواقع لم يؤمن ، وانما ظل على الشك ، لانه يحكى فى هذا الكتاب نفسه بعد هذه التجارب وهذه الرؤيا ، أن شكه ما زال يلاحقه ، ويظهر أن هذا الفصل الاخير من الكتاب (سبب نشر العلم بعد الاعراض عنه) كتبه مؤخرا بعد هذه التجارب •

وبعد • فما كان الاقرب لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر ، اذا اعتراه شك أن يلجأ الى كتاب الله وسنة الرسول ، بدل أن يلجأ الى فلسفة انفلاسفة وبدع المتكلمين الباطنية والصوفية ، ويهتدى بهدى الله فى ذلك ؟ ! ألم يقرأ قوله تعالى : (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) ؟ وقوله : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ؟ وقوله : (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ؟ ••

ويظهر أن الرجل فعل ذلك أخيرا وفى آخر حياته ، ولم يمهله الاجل حتى يسجل لنا ذلك ، وربما قد يكون سجله ، ولكن المولعين بالتصوف وعلم الباطن ، ضيعوه ولم ينقلوه الينا • وان كان قد وضح ذلك بطريقة تكاد أن تكون صريحة فى كتابه (الجام العوام عن علم الكلام) الذى كتبه قبيل وفاته بأشهر ، وان كان لم يعلن فيه رجوعه عن التصوف ، أو ندمه على ما بدر منه فى ذلك • ولكن الثقات يحكون عنه هذا ويتحدثون بذلك ، وأنه عكف فى آخر حياته على صحيحى البخارى ومسلم ، وينقل عنهم أيضا ابن تيمية أنه مات على أحسن أحواله •

د• ابراهيم هلال